علاقة اتسمت بالإعجاب المتبادل

1 التبادل النقدى بين سيد قطب ونجيب محفوظ

العلاقة بين القامتين (نجيب محفوظ)، و(سيد قطب) أجدر بالدراسة والنظر، فقد اتسمت بالإعجاب المتبادل والثناء العطر على كل من إبداعات الآخر، فقد كان سيد قطب أسبق النقاد إلى تقديم وتعريف الأعمال الروائية الأولى لنجيب محفوظ إلى الساحة الثقافية.

فعرض لكل من: (كفاح طيبة) مجلة الرسالة ٢/ ١٠/ ١٩٤٤م، وتمنى لو كان الأمر بيده لطبع آلاف النسخ من هذه الرواية (لتكون فى يد كل شاب ولتدخل كل البيوت وإن كاتبها يستحق التكريم والإجلال)!

ورواية (خان الخليلى) والذى عقد سيد قطب عدة موازنات بينها وبين (عودة الروح) للحكيم، وفى النهاية عدّها أفضل منها لتوافر الملامح المصرية بها، وفى ختام حديثه وجه إليه النصيحة: (آملاً ألا يكون صدى ثنائه باعثًا للغرور فى نفس المؤلف الشاب المرجو - فى اعتقادى - لأن يكون قصاص مصر فى القصة الطويلة)!

وكذلك (القاهرة الجديدة) مجلة الرسالة ٣٠/ ١٢/ ١٩٤٦م، والتى أنب سيد قطب نقاد الأدب لأنهم أغفلوا التنبيه إلى هذه الرواية وتغاضوا عنها مع أنها (لا تقل أهمية فى عالم الرواية القصصية فى الأدب العربى عن شأن أهل الكهف وشهرزاد للحكيم فى عالم الرواية التمثيلية)، ورواية (زقاق المدق) فى مجلة الفكر الجديد ٨/ ١/ ١٩٤٩م.

وإحقاقًا للأمانة لم ينس نجيب محفوظ لسيد قطب هذه المآثر، وظل على الدوام يذكرها (أول ناقدين كتبا عن مؤلفاتى فى مجلة الرسالة هما: سيد قطب، وأنور المعداوى، فقد كان لهما الفضل فى انتزاعى من الظلام إلى النور)!

غير أن سيد قطب سابق للمعداوى وغيره!

وكذلك كان نجيب محفوظ لم يتأخر فى سباق التقديم لأعمال سيد قطب، فعندما صدر كتابه (التصوير الفنى فى القرآن)، كان أول أديب تصدى للنظر فى الكتاب، فأثنى عليه، ثم أبدى آراءه فى صلب الكتاب، تكشف صفحة (النقد الأدبى) لنجيب محفوظ والتى لم يشر إليها أحد، قائلاً: (أن المؤلف تحدث عن التشخيص والتجسيم وغيرهما، وتلك الخصائص من سمات الشعر، غير أنه لم يحدد النوع الأدبى الذى يمكن أن يصنف فيه القرآن الكريم، كما خالفه فى إطلاق كلمة النماذج الإنسانية، على الآيات التى أوردها، وكان يفضل لو أنه سماها طبائع، لأن النماذج أشمل من الطبائع)، ورد عليه سيد قطب فى الرسالة ٢١/ ٥/ ١٩٤٥م فى حوار هادئ بعيد عن سجالات سيد قطب العنيفة!





وعندما أصدر سيد قطب روايته (أشواك) عرض لها أيضًا نجيب محفوظ، ولكن على صفحات جريدة (السوادى)، والتى كان سيد قطب مشرفًا على صفحتها الأدبية، وعدها نجيب محفوظ، وبحق (قصيدة غنائية طويلة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان)، وأنه (استوفى الغاية من الدقة والحساسية والعمق والصدق)، واستطاع أن يحرك القلوب ويدمجها فى مأساته، تعيش فيها، وتشارك فى حبها ونفورها، ولذاتها وآمالها، وفى النهاية مدح سيد قطب قائلاً: (كان توفيق الكاتب باهرًا رائعًا)!

ولكن كيف تغيرت هذه العلاقة القائمة على الإعجاب المتبادل وأصابها فى مقتل، وانقلبت إلى تلك الصورة المشوهة التى نقلها نجيب محفوظ فى كتابه (المرايا) عن سيد قطب تحت مسمى (عبد الوهاب إسماعيل) فى صورة المتعصب المنفر السمت والشكل، والمزدوج المعايير.. كيف كان؟ ولماذا؟! وإن كنا نحاول أن نتجاوز هذه الكائنة، فقد أفضا الاثنان إلى ما قدما، ومن أجل ذلك، وبمناسبة صدور رواية (أشواك) للمرة الثانية، والتى أعدها للنشر الناقد المبدع شعبان يوسف نعيد نشر هذه التحفة الأدبية لنجيب محفوظ، وقد نشرت فى جريدة (السوادى)، العدد ٤٨ السنة ١، ٩ من شوال ١٣٩٦هـ - ٢٥/ ٨/ ١٩٤٧م، ص ٦ .

أحمد حسن على

الناقد نجيب محفوظ يكتب عن الروائى سيد قطب

2 «أشواك» قطب.. قصيدة غنائية طويلة

كأن هذه القصة قصيدة غنائية طويلة، غنائية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، فهى من ناحية تجربة ذاتية، وهى من ناحية أخرى تصف شعورًا عميقًا فى حال عالية جدًا من التوهج والحساسية والانفعال، حال يستحيل فيها الجسم ذوبًا من العاطفة وتنقلب الروح أتونًا تنصهر فيه المشاعر والأفكار والأوهام، هى قصة قلبين ألف بينهما الحب حتى بلغ بهما ليلة الخطوبة السعيدة، وفى تلك الليلة وحيثما أمسك بيدها ليلبسها الخاتم أحس بها ترتعش متقلصة فى يده، ونظر فإذا دمعه تند من عينيها ويخلو بها وجلاً مستخبرًا فتبوح له بكل شىء مطمئنة إلى رجولته واثقة من حنانه، وتختم قصتها قائلة، وهذه الدمعة التى رأيتها لم يكن منها بدء، كنت أشيع بها عهدًا عزيزًا، كان اللحن الموسيقى من حولى هو لحن الجنازة أشيع به نعشه (تعنى حبيبها الأول) للمرة الأخيرة.. (والآن لقد انتهى كلا لم ينته، ولكن بدأت صفحة جديدة من الإيثار والحب، تتلوها صفحات من الغيرة والشك، ثم صفحات من الغفران والسعادة تعقبها أُخريات من الوساوس والآلام، ولا يزالان فى صراع مخيف، يحاولان نسيان الماضى والإخلاص للحاضر والمستقبل، حتى يقتلهما الصراع فيمد الماضى يده السوداء حائلاً بينهما فى قسوة ووحشية، وإذا بصاحبنا يعود كما كان قلبًا خاليًا فى دنيا قفراء، وتمر الأيام وهو لا يألو أن يقتلع من قلبه أحلام ماضيه فلا يجد إلى ذلك سبيلاً، لقد ثبتت منه فى القلب مودة وفى النفس صورة، لا يحس إلا بتلك ولا يرى إلا هذه، ثم توغل الأيام فى سيرها، وإذا به يلتقى يومًا بفتاته تجر بيدها طفلاً، فيقبل عليها وقد نسى نفسه، وتستقبله بابتسامة الأسى البعيد، وتسأله عن حاله، وتقدم له طفلها، وكم راعه أن وجدها قد سمته باسمه، وإن كان الاسم هو كل ما ظفر به حبه.

وكان توفيق الكاتب باهرًا رائعًا، والتوفيق فى مثل هذه القصة يتعلق قبل كل شىء بتصوير العواطف، فهى ليست كالقصة الموضوعية يتشعب فيها مجال التعبير لتعدد مقوماتها من الموضوع والشخوص والقيم الفنية المتنوعة، ولكنها تتركز فى العاطفة الأساسية التى يتبلور فيها والباعث والموضوع والقصة جميعًا.

وقد كان توفيق الكاتب باهرًا رائعًا كما قلت، استوفى الغاية من الدقة والحساسية والعمق والصدق، وتسجيل الخلجات حتى أدقها وأبعدها إيغالاً فى مسارب النفس، فاستطاع أن يحرك القلوب ويدمجها فى مأساته، تعيش فيها، وتشارك فى حبها ونفورها، ولذاتها وآلامها، وذلك كله فى بيان سلس جميل مشرق يستأثر النفس بشاعريته ويبهرها بدقته ويستهويها بطابعه القصصى.

ولم يشأ الكاتب أن يسوق وصفًا مباشرًا لبطليه، ولكن شخصيتيهما تتبلوران وتتميزان فى مجريات تصوير العاطفة التى تربطهما وانسياق الحوادث فيما بينهما، ومن ذلك يتبين أن فتاه من أولئك الفتيان الذين يهاجرون من الريف فى طلب العلم، ثم تستبقيهم أسباب الحياة فى القاهرة فيعيشون على شاطئ الحياة بها محافظين على طهر منشأهم الأول، ولا يستجيبون لدواعيها إلا بمقدار لا يخدش الفضيلة بحال من الأحوال، يتخذون زيها ويقطنون مساكنها ويخالطون أناسها، حتى إذا حركتهم تجربة من تجاريبها تكشف ظاهرهم المكتسب عن طبعهم الأصيل ونزعت بهم الأفئدة إلى تقاليدهم الأولى فى حدة لا تعرف الاعتدال وغضب لا يبالى بالرحمة، فلم تخل عاطفته قط من صراع ونضال، وإذا أضفنا إلى ذلك ما جبل عليه من حساسية شديدة جعلت من نفسه فريسة سهلة للوساوس والشكوك، وما طبع عليه من كبرياء واعتزاز بالنفس دفعاه فى أكثر من حال إلى أن يقف من فتاته موقف المعلم والمرشد، وإلى أن ينظر إليها من عل وهو لا يدرى، إذا أضفنا هذا كله أمكننا أن نفهم البواعث التى كانت حرية بأن تقضى على حبه فى أية لحظة من اللحظات، وكأنه لم يفطن دائمًا لشدة شكه وكبريائه، ولكن جاء على لسان أهل خطيبته ما يؤكد هذه الخلال، فأم الفتاة تقول له وقد نفد صبرها: "... ولو كانت جارية يعذبها سيدها ما احتملت أكثر من هذا، كل يوم عتاب، وكل يوم مناقشة، وكل يوم تأنيب!"، وأخوها يقول عنه – فى إبان الخلاف – بأنه لم يكن فى الحقيقة جادًا فى مشروعه وأنه كذلك كثير الشكوك والمخاوف إلى درجة لا تطاق!

وفى هذا الوصف وذاك، ما يدل على حقيقته بلا ريب، ولكن فتانا كان مخلصًا لطبيعته ومنطقه فلم يدر أنه بات لا يطاق، ووئد حبه وهو يبكيه بدموع غزار.. أما الفتاة فهى أنوثة مكتملة، مطمئنة إلى فتنتها معتزة بسحرها، وقد جربتها فى رجلين أحبتهما وفى كثير ممن لم تحب، وكان اعتزازها بأنوثتها لا يقل عن اعتزازه بنفسه، فنشب الصراع بين قوتين جبارتين، وكأنهما آثرا معًا فى النهاية عذاب القطيعة والحرمان على ذل النفس والإذعان، لم تكن تريد رجلاً فحسب، ولكنها رامت رجلاً يعبدها ويعتز بها، ويرى فى أنوثتها ما ترى هى على الأقل، ولما قضت الظروف بأن تبديها أمامه عارية – على حد تعبيرها – وأن يطلع من ماضيها على ما هو عسى أن يبدد أحلامه وأوهامه، جفلت منه، وأبت أن تكون له، وداست قلبها ومستقبلها، ورضيت بالقبوع فى بيتها تنتظر "أى رجل" غيره، قد لا يجوز رجولته وسجاياه.

ولكنها لن تقف منه موقف الإذلال أبدًا، وفى هذا الكفاية لتلك النفس الحساسة العزيزة، انظر إليه كيف يقول عنها فى موقف من مواقف الصراع "... فكانت تخشى أن تتودد كما يريد، فيحمل ذلك منها على ذلة الاعتراف، ومهانة الانكشاف، وكانت تقيس مكانها عنده باحتماله لتدللها..."، وفى مرة تقول له: "تحسبونني طفلة، تغضبونها وتوبخونها ثم ترضونها قطعة من الشيكولاته". أجل لم تكن فتاة تروم بعلا فحسب، وقد قابلها حبيبها الأول بعد فسخ خطبتها – وكان ظله سبب هذا الفسخ – فأبت أن تسلم عليه وردته ردًا غير جميل وهى الخطيبة المهجورة، وقد انصرم عام أو نحوه فرجع إليها فتانًا مستنفرًا وراغبًا، وكان فى أسوأ حال، خطيبته مهجورة لا ترحمها الألسنة والتخرصات، ولكن هل رحبت به؟ أهل انتهزت الفرصة لتظفر برجلها. وتقطع ألسنة السوء؟ كلا، وعلى العكس من ذلك راحت تقول له: "اسمع يا أخى، إننى لا أصلح لك، إن حياتنا لن تستقيم، إننى عارية، أمامك، ولن أقف عارية أمام إنسان...".

وأعود فأقول: إن توفيق الكاتب كان باهرًا رائعًا، ولكن ينبغى أن نذكر إلى هذا أن القصة تجربة شخصية، فهى معفاة من ضرورات الخلق فى الموضوع والشخوص، كما ينبغى أن نذكر أن القاص لا يستحق هذا الاسم حقًا حتى يخرج عن نطاق ذاته، ويكتب عن الآخرين، ولكن ليس من شك أن من حقه أن يعالج تجربته الشخصية ولو مرة واحدة، ومن حقه كذلك إذا فعل فأحسن وأجاد أن يشهد لفنه بما هو أهله من السمو والبراعة.

نجيب محفوظ



قطب — محفوظ